العدد (1771) السنة السابعة - الخميس (15) نيسان 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـــواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

كـــلام ابـيـض

ننتظر تداول السلطة في العراق

حازم مبيضين

ليس معروفاً إن كان الساسة العراقيون يدركون حجم تأثير التجربة الديمقراطية في وطنهم على الأقطار العربية كافة، باعتبار تميزها وجذريتها ووظيفتها في نقل بلاد الرافدين، من ظلام وظلم الحكم الدكتاتوري، إلى فضاءات الحرية والتعددية واحترام حقوق الإنسان، ولسنا على ثقة بأنهم يعرفون أن الشارع العربي العادي يتطلع إلى نجاح العراقيين باعتباره الخطوة الأولى نحو تغيير جذري يعطي المواطن بعض حقوقه الأساسية التي تنام إما في أدراج الحكومات والبرلمانات الصورية، أو في أقبية الأجهزة الأمنية.

نراقب بالتأكيد نتائج الانتخابات، وما تبع من مناكفات سياسية واصطفافات جديدة، نرى أنها من صلب العملية الديمقراطية، وتراقب المرأة العربية بشكل خاص، مشاركة نظيرتها العراقية في الحياة السياسية، وخصوصاً في جانبها الكردي وهو الأكثر نجاحاً، ويراقب الحزبيون أداء الأحزاب العراقية قبل الانتخابات وبعدها، ويراقب البرلمانيون تجربة بناء تحالفات برلمانية للفوز بتشكيل الحكومة الجديدة، ويراقب الساسة حجم التأثيرات الخارجية واستجابة العراقيين أو رفضهم لها، ويراقبون تأثر النواب الجدد بهذه التأثيرات ويدرسون إن كان هذا التأثر نابعاً من المصلحة الشخصية والحزبية أو من الحرص على المصلحة الوطنية، لكن الأهم من كل ذلك مراقبة المواطن العربي للتجربة وتمنياته بنجاحها.

تجربة الانتخابات العراقية لا تخص العراقيين وحدهم، ونتائجها لن تنعكس على واقعهم فقط، والأسباب عديدة ومتنوعة، فالشارع العربي تواق لتغيير المعادلة القائمة دون استعداد لدفع أثمان ذلك، وهو يأمل باستغلال الثمن الذي دفعه العراقيون، للوصول إلى مجتمع ديمقراطي بالكامل ينهي ما تبقى من حكم العسكر، وما تبقى من دكتاتوريات مسيطرة تحت العديد من اللافتات، وينهض بالأقطار العربية نحو إعادة تعريف الدولة وتنظيمها على أسس جديدة، وبمعنى أن تتسيد الجوامع المشتركة على جميع المواطنين وتنظيماتهم السياسية، ملغية عوامل الفرقة والنزاع، وكافية لتحويلها إلى التكامل، وبلورتها كحقائق تتجاوز أي علاقات مع أي قوى خارجية، على الرغم من أن الواقع العراقي لا يشي بتحقق ذلك، وإن كان يبشر به استناداً إلى نتائج الانتخابات الأخيرة.

معروف تعدد المرجعيات في العراق، وإن كان المطلوب وجود مرجعية واحدة تستند إلى الدستور يقبلها الجميع ويحتكمون إليها، وقد ثبت أن الذين ينطلقون من المرجعية الدينية قد انجرفوا في التيار الطائفي سواء كانوا من الشيعة أو السنة، كما ثبت أن المستندين إلى العلمانية لم يتمكنوا من إقناع بقية الأطراف بطروحاتهم، ولعل المؤسف قيام قوى من الطرفين بتوظيف الشعارات للدخول في تحالفات آنية ومصلحية لا تستند إلى قوانين مرجعيتها ولا تحاول التوصل الى صيغة سياسية للتطوير وقابلة للتطبيق العملي.

وإذا كنا نقر باحترام المرجعيتين، فان المطلوب أن يتوفر هذا الاحترام عند إتباعهما، وليس أمراً خارجاً على المألوف أن يعتبر كل واحد أن مرجعيته هي الأصلح والأفضل، لكن المطلوب مرة أخرى هو ما يتحقق عملياً وعلى أرض الواقع من الالتزام بمبادئ تلك المرجعية، مع الأخذ بعين الاعتبار عدم الإقصاء والتهميش لأنصار المرجعية الأخرى وبما يضمن لهم حقوقهم وحريتهم في العمل، والتمتع بمواطنتهم دون خوف أو إحساس بالغبن.

العـراق الضـائع فـي ظـلام غرفـة بـاول أوسـتير

نجم والي

رجل محاصر في حفرة مظلمة يحاول فهم المصير الذي انتهى إليه؛ رجل آخر يجلس في ظلام غرفة نومه ويروي القصص؛ عوالم حقيقية وأخرى متخيلة من الصعب التمييز بينهما؛ كل ذلك نعرفه من قراءاتنا أعمال باول أوستر، أنه موجود في جميع رواياته السابقة والتي تدور كلها حول العلاقة المتداخلة بين العالمين المذكورين، والتي لا علاقة لها (كما في أعمال روائيين آخرين) بالدوافع التي تجعل شخصية روائية ما تتحرك بهذا الإتجاه وليس ذاك. لكن ماذا حصل في روايته الجديدة، "رجل في ظلام"؟ وفي أي إتجاه ذهب هذه المرة رجل التحري الخاص، الذي من الصعب تصور رواياته السابقة بدونه؟

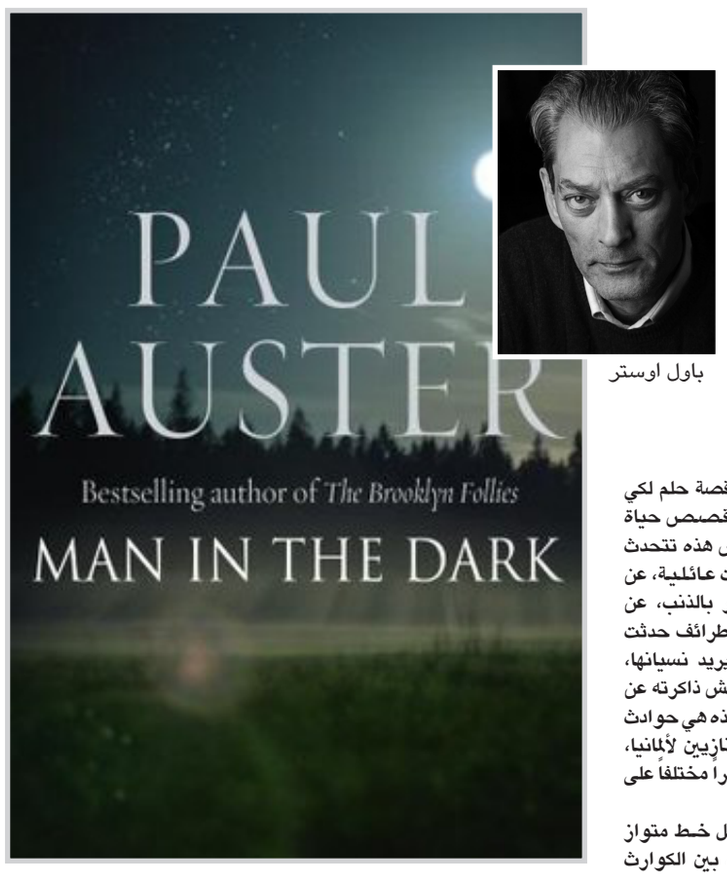

باول اوستر

مقارنة بروايات سابقة لباول أوستير لا تبدو رواية "رجل في ظلام"، أكثر تشاؤمية وحسب، بل أنها ضائعة بعض الشيء، من الصعب تصنيفها في خانة معينة، ولا ينقذها الدافع الشخصي الواضح، فهي مهداة إلى عائلة الكاتب الإسرائيلي دافيد غروسمان الذي قتل إبنه عام ٢٠٠٦، في اليومين الأخيرين من الحرب بين إسرائيل وحزب الله في جنوب لبنان. الرواية تتحدث عن شخص أسمه أوين بريك والذي يستيقظ ذات يوم ويجد نفسه في حفرة أرضية ويلاحظ، أنه إنتهى إلى واقع "معاصر" بديل عن الواقع الذي كان فيه، حيث تدور أمامه حرب أهلية في الولايات المتحدة الأميركية عام ٢٠٠٧، أما طرفا النزاع فهما: من جهة الولايات الأميركية التي أعلنت الإستقلال ومن الجهة الأخرى، الإتحاديون الذين التفوا حول الرئيس الأميركي السابق بوش ينيور. في الواقع "البديل" هنا نرى أيضاً برجي التجارة العالميين ما يزالان شاخصين. تلك هي أول إشارة لإختلاط الواقع بالخيال، وبأننا أمام عالمين مختلفين: زمن خارج الرواية، وزمن ما قبل الرواية. لكن ما هو ثابت في الرواية هو أن أوين بريك يُدعى للحرب لكي يوقفها.

المهمة التي يتسلمها أوين بريك من قادة الجيش في الولايات الأميركية المستقلة، هي إبادة المسبب الرئيسي للحرب: والذي هو في الرواية ناقد أدبي طاعن في السن، عمره ٧٢ عاماً، اسمه أوغست بريل، والذي جلس شخصياً في ظلام غرفة نومه وهو يروي قصة حرب أهليه، تقسم الولايات المتحدة الأميركية إلى شطرين، وعن رجل أسمه أوين بريك يتسلم مهمة قتل المسبب الرئيسي لهذه الحرب! وكأن ناقدنا الطاعن بالسن هبّ لطلب النجدة للإنتهاء من موته الشخصي وبسرعة عبر طريقة ملتوية "خيالية".

هل يمكن لأوين بريك المخترع التصرف بشكل حر في هذه الحالة؟ وهل يمكن أن يكون سلوكه "قاتلاً" بالفعل في النهاية، كما تصوره أوغست بريل؟ أنها أسئلة تقع في صميم قلب "شاعرية ما بعد الحداثة الخاصة بباول أوستير"، كما وصف ذلك أحد النقاد الألمان، وهو يتحدث عن الرواية الجديدة لباول أوستر والتي هي حسب الناقد نفسه، "أسئلة معروفة شغلت المجال الذي تحركت فيه شخصيات روايات باول أوستر جميعاً". صحيح أن روايته هذه تملك مستوى فانطازيا تجريدياً مشابهاً لروايته التي سبقتها "رحلة في غرفة الكتابة"، إلا أن إطار الحكاية الذي يؤطر أوغست بريل هو أيضاً الإطار الذي رأيناه يؤطر حكاية روايته ما قبل الأخيرة، "بروكلين ريفيو"، وهو إطار مبالغ به، يريد أن يكون واقعياً بالقوة.

الإطار هنا مبالغ به، لأن أوغست بريل وببساطة لا ينجح بالعيش في قصصه، لكي يسحب نفسه من الواقع. ففي الغرف الأخرى لبيته نرى كيف أن إبنته ميريام، وحفيدته الشابة التي عمرها ٢٣ عاماً، كاتيا، والتي سقط صديقها تيتوس سمول قتيلاً في الحرب، ساهرتين لا تنامان. وفقط أولاً عند نهاية الرواية تكشف الاحداث عن نفسها في علاقتها مع بعض: تيتوس سمول (القتيل) سبق له وأن عمل في قسم الخدمات في الجيش الأميركي في العراق، أختطف هناك وقطع رأسه أمام الكاميرا. وهذا ما يوضح ليالي السهر اللانهائية أمام التلفزيون والتي يقضيها أوغست بريل مع حفيدته (التي قطعت دراستها للسينما بعد موت تيتوس)، بمشاهدة أفلام كلاسيكية أميركية. كما لو أنهما أرادا عن طريق ذلك محو صور قتل تيتوس البشعة وإستبدالها بصور أخرى جديدة، جميلة ربما، إستعاراها من الأفلام الكلاسيكية، كأنهما أرادا في النهاية تشكيل إنطباعات "إنسانية" جديدة في الذاكرة، غير تلك التي جلبتها الحرب معها.

باول أوستير يروي قصة حلم لكي يربط الحلم هذا بقصص حياة أوغست بريل. القصص هذه تتحدث أيضاً عن إنفصالات عائلية، عن إصراره على الشعور بالذنب، عن زواجين فاشلين وعن طرائف حدثت له مع أصدقائه ولا يريد نسيانها، ربما يفعل ذلك لكي ينعش ذاكرته عن طريقها، لأن الطرائف هذه هي حوادث جرت في فترة حكم النازيين لألمانيا، كما أنها تلقي ضوءاً آخراً مختلفاً على حوادث حياته الحالية.

بهذا الشكل يتشكل خط متواز قابل للفهم إلى حد ما، بين الكوارث الشخصية والكوارث التي تجلبها الحرب. لكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه على القاريء: هل يمكن بالفعل مقارنة هذه الكوارث ببعض؟ هل تستطيع قصة العالم "الحقيقية" تقديم العزاء لشخص ما يعيش قصة "كارثية" آنية؟ على الاقل نهاية رواية "رجل في ظلام"، تلمح، بأن الأمر يمكن أن يكون بهذا الشكل! كاتيا وميريام تجيئان ليلاً إلى غرفة أوغست بيل وترويان له سوية وحتى ساعات الصباح المبكرة قصصاً شخصية، نوع من العلاج، ليس عن طريق شطب القديم عن طريق صور جديدة، بل عن طريق كلمات متبادلة في الظلام. المكان "الفارغ" الخاص برجل التحري الخاص كما عرفناه في روايات أوستير السابقة، شغلته هذه المرة الحفيدة، كاتيا، والتي تستخلص قصة حياة أوغست بيل منه شخصياً، لكي تعثر في داخلها على وضعها الخاص بها أيضاً.

أما أن يجعل أوغست بيل، الراوي "الواقعي" في الرواية، بطله "القاتل" المخترع يموت قبل نهاية الرواية بصفحات عديدة، فلا يعدو في هذه الحالة غير تعبير عن رفض باول أوستير للقص عموماً. إنتقالة أوستير "الروائية" في هذه الرواية، طريقته بكتابتها، هي لهذا السبب غريبة أيضاً، لأنه أراد أن يقنعنا في النهاية، أن شفاء الراوي يشترط موت الشخصية التي يُروى عنها.

وبهذا الشكل لم يأت باول أوستير في هذه الرواية بما هو جديد. "ما يجذب القاريء لقراءة رواية"، كتب ذات مرة الفيلسوف الألماني فالتير بنيامين، "هو الأمل، بمنح حرارة إلى حياته المملة عن طريق الموت، الذي يقرأ عنه".

عموماً أن ما يبدو أمراً عصبياً أكثر في هذا السياق، إن لم يكن الأمر غير قابل للإقناع، هو أن العراق في "رجل في ظلام" يبدو من حين إلى آخر مثل عالم "خفي" يتحرك بالتوازي، بينما هو في الحقيقة، حاضر في وسط العالم الوحيد الموجود أمامنا، وليس كما هو العراق الضائع في ظلام غرفة باول أوستير!

لمـــن يـكـتـبـون؟

صبيح الحافظ

سؤال يدور في مخيلتي ويروقني ويدفعني أحياناً الى الابتعاد وتجنب المواضيع التي تنشر في وسائل الإعلام واخص بذكر الصحف والمجلات ، وكلنا يعلم ان كتابة المواضيع في الصحف اليومية هي متابعة (حديث الساعة) أغلب الأحيان لتعريف القارئ بهذا الحدث ، ومواضيع أخرى للتثقيف والتعليم وهي موجهة إلى عموم القراء ، علماً ان هؤلاء ليسوا بمستوى واحد من قدراتهم على فهم مفردات الموضوع ، وان هذه الصحف والمجلات والدوريات الأخرى تصدر لعامة الناس وليس لخاصتها ، وعليه يجب على كاتب الموضوع مراعاة القارئ في الكتابة العامة وذلك بنشر المواضيع التي تجذب القارئ لقراءتها والاستفادة منها ويا حبذا لو يطرح الموضوع متجنباً فيه الكاتب المصطلحات العلمية والأجنبية ، وإذا كان لابد منها ودرجها ضمن سياق الموضوع لا باس ان يعرفها ويشرحها شرحاً بسيطاً لتقبلها وهضمها ، فعلى سبيل المثال ، لو جاء مصطلح الميثولوجيا فعلى الكاتب ان يعرفها للقارئ بين قوسين هي (علم الأساطير) وأنا لا أكتمكم سراً بأنني ومن عموم القراء الاقي في قراءاتي اليومية للمواضيع المنشورة في الصحف عشرات المصطلحات التي يصعب علي فهمها وهذا ما يؤدي الى عدم فهم الموضوع برمته ، ويظن كاتب المقال ان – القراء عامة يفهمون ما يكتب وما يدون خلال كتابته من اصطلاحات علمية وأجنبية او عربية او عبارات ذات دلالات ومعاني لا يفقهها ويفهمها ألا المثقفون الفقهاء ، وما يضر الكاتب أن يلحق المصطلح اللغوي او الأجنبي بتوضيح يحمل معنى ما يريد ، وكما ذكرت ذلك أنفاً.

قد يكون معنى الاصطلاح الأجنبي او العربي من السهولة والإدراك على كاتبه ولكنه قد يكون من العسير على من ليس له اطلاع على محتواه ومصدره ، فمثلاً وعلى سبيل المثال أيضاً سألني زميل لي كان يقرأ في صحيفة ورد اصطلاح(سسيولوجي) وقد أجاب بعض القراء وكانوا جالسين في مقهى في الباب المعظم قال احدهم ان هذا المصطلح يتكون من مقطعين هما سسيو وتعريفه يعني (المجتمع) والمقطع الثاني لوجي ويعني(علم) والمقطعين تعريفهما هو (علم الاجتماع) وكان من الأحرى بالكاتب ان يوضح ذلك كما ورد أنفاً.

علماً أنني لا أرى بأساً اصرخ بعدم معرفتي لبعض المصطلحات ، ولهذا أنني أتساءل وأقول لمن يكتبون؟.

أول مايو (أيـــار).. يـوم للاحتجـاج

حسين عبد الرازق

يستحق مركز هشام مبارك للقانون التحية والتقدير لدوره في إصدار محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة حكمها في ٣٠ مارس الماضي بوضع حد أدنى لأجور العاملين في مصر يتناسب مع الأسعار. فالحكم القضائي يمثل إضافة مهمة لنضال سياسي واجتماعي طويل للطبقة العاملة المصرية من عمال وموظفين مهنيين يعملون بأجر، وللأحزاب السياسية المنحازة للشعب المصري وطبقاته المنتجة وفي مقدمتها حزب التجمع.

لقد طرح الحزب منذ تأسيسه قضية الأجـور، وطالـب في مؤتمره العام الثاني (٢٧- ٢٨يونيو ١٩٨٥) باتخاذ إجراءات سريعة لإصلاح الأجور في القطاعين العام والحكومي وربطهما بالأسعار) ، ونص في برنامجه العام) بناء مجتمع المشاركة الشعبية -١٩٩٨- على كفالة حق العمل (والحق في أجر منصف وعلاقة عمل مستقرة والحق في مكافأة متساوية لدى تساوي طبيعة العمل دون تمييز، وطالب في قرارات مؤتمره العام السادس (٥-٦مارس ٢٠٠٨) بضرورة (طرح قضية ربط الأجـور بـالأسعار وزيـادة الأجـور سنويا بما يتناسب مع الزيادة الفعلية للأسعار، وتحديد حد أدنى مناسب من الأجور يكفي لإعاشة أسرة مكونة من ٤ أفراد).

وانشغل الحـزب منذ مطلع الألفية الجـديـدة بـدراسـة قضـية الأجـور والرواتب في مصر، في ضوء تدني مستوى الأجـور مما أدى إلي وقوع ما يقرب من ٥٠٪ من المصريين تحت مستوى الحد الادني للفقر (٢ دولار في اليوم أي ٣٢٦ جنيها مصريا في الشهر)، اضافة إلي أن أي مقارنة بين مستوي الأجـور في مصر مع الدول العربية غير البترولية مثل سوريا وتونس والمغرب تكشف عن هـزال الأجور والرواتب في مصر، يكفي أن نعلم أن الحد الأدنى للأجور لموظفي الحكـومـة والـقـطـاع الـعـام (الأجـر الأساسي) منذ صدور القانون ٥٣ لسنة ١٩٨٤ هو ٣٥ جنيها شهريا، وللعاملين في القطاع الخاص (القانون ١١٩ لسنة ١٩٨١) هو ٢٥ جنيها شهريا لمن لا تقل سنهم عن ١٨ عاما، و٩ جنيهات شهريا لمن تقل سنهم عن ١٨ سنة. كما اهتم الحزب بالتفاوت الهائل في الأجور بين الحد الأدنى والحد الأقصى، والتفاوت في الأجـور والـرواتـب بـين العاملين في مصلحة واحـدة، والعـامـلـين في القطاعات والمصالح المختلفة.

وطبقا لجدول أجـور الموظفين (٨ر٥ مليون موظف) في أول يوليو ٢٠٠٧ فإن كل الموظفين المصريين من الدرجة السادسة وحتى الدرجة العالية يقعون تحت خط الفقر إذا كانوا يعولون فردا واحدا (وليس أربعة أفراد). فالأجر الأساسي للموظف في الدرجة السادسة ١٠٥ جنيهات يرتفع إلى ٧٥ر٢٢٧ بعد إضـافـة الأجـر المتغير، وفي الدرجة الخـامسة ١٠٨ جنيهات يرتفع إلى ٨ر٢٣١، والدرجة الرابعة ١١٤ يرتفع إلي ٩ر٢٣٩، والثالثة ١٤٤ يرتفع إلى ٤ر٢٠٨، والثـانـيـة ٢١٠ يـرتـفـع إلـي ٥ر٣٦٩، وفي الأولي ٢٨٥ يرتفع إلي ٧٥ر٤٧٠، والمدير العام ٣٧٥ يرتفع إلى ٢٥ر٥٩٢، والدرجة العالية ٤٢٠ يرتفع إلي ٦٥٣، والـدرجـة الممتازة ٧ر٦٥٠ يرتفع إلى ٣٧ر٩٧٨ جنيه. علما بأن خط الفقر لفردين هو (٦٥٢ جنيها) شهريا.

وفي ١٠ ديسمبر ٢٠٠٧ انتهت أمانتا العمال والمهنيين في حـزب التجمع من دراسة قضية الأجـور، في ضوء تدهور مستوى معيشة العاملين بأجر وتـأثـيره عـلـي نمـو الانـتـاج الوطني وإنتاجية العاملين، وتناولت الدراسة هيكل الأجـور، والحد الأدنى للأجور والاقـتـراحـات الـخـاصـة بتعديلها، وكيفية توفير التمويل الـلازم لتنفيذ الاقتراحات، مستخدمة في ذلك دراسة واقعية لتكلفة (سلة السلع الغذائية) الـلازمـة لأسـرة مكونة من ٤ أفـراد طبقا لأسعار السوق في عام ٢٠٠٧، واقـتـرحـت الـدراسـة أن يـكـون الحد الأدنى للأجر هو ٩١٢ جنيها شهريا، وأن يكون الحد الأقصى هو عشرة أضعاف الحد الأدنى أي ٩ آلاف جنيه شهريا.

وقـدم د. جـودة عبـد الخـالـق عضو المكتب السياسي للحزب ورئيس قسم الاقتصاد في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية دراسة أخـرى انتهت إلي اقـتـراح أن يكون الحد الأدنـى للأجر في مصر٨٤٠ جنيها، واقترحت دراسة ثالثة للدكتور إبراهيم العيسوي عضو المكتب السياسي وخبير التخطيط أن يكون الحد الأدنى ٦٨٢ جنيها.

وبـصـرف الـنـظـر عـن الاخـتـلاف في الاقـتـراحـات الـخـاصـة بـالـحـد الأدنـى، فهناك اتفاق حاليا، وفي ضوء مستوى الأسـعـار الـحـالـيـة الـتـي شـهـدت في السنوات الأخيرة ارتفاعات فلكية في الأسعار ونسب التضخم، علي تحديد الحـد الأدنـى لـلأجـور في الحكومة والقطاع العام والقطاع الخاص بين ١٢٠٠ جنيه و٢٠٠٠ جنيه شهريا للفرد.

وتحـقـيـق هـذا الـهـدف- المتواضع- لن يتم بمجرد نشر هذه الدراسات وإصدار البيانات والكتابة في الصحف والاشتراك في الندوات والحديث في القنوات الفضائية والأرضية، فالأمر يحتاج إلى استخدام واسع لأساليب الضغط والاحتجاج الديمقراطية، بدءا من توزيع البيانات في أماكن التجمع الطبيعية للمواطنين، وعقد المؤتمرات الجماهيرية خـارج المـقـار، وتنظيم المسيرات والـوقـفـات الاحتجاجية، وصولا إلي الإضراب والاعتصام.

واقترح على الأحزاب والقوى السياسية والحركات الاجتماعية والاحتجاجية أن يكون أول مايـو الـقـادم، هـو يوم الانطلاق لحملة سياسية جماهيرية من أجل المطالبة بحد أدنى للأجور ١٥٠٠ جنيه شهريا للفرد، وللربط بين المطالب الاقتصادية والاجتماعية والتغيير السياسي والدستوري.

فلتتفق الأحـزاب والـقـوى والحركات الاحـتـجـاجـيـة عـلـي تـنـظـيم المسيرات السلمية والتجمع أمام مجلس الشعب ومجلس الوزراء في أول مايو رافعين أربعة شعارات مترابطة٠٠

- ١٥٠٠ جنيه شهريا حد أدنى لأجر العامل والموظف.

- إلغاء حالة الطوارئ وتعديل قانون الـطـوارئ لـتـحـديـد سـلـطـات الحاكم العسكري ووضع القيود والضمانات الدستورية والقانونية التي تضمن عدم إعلان حالة الطوارئ أو مدها إلا لأسباب حقيقية تستلزمها، وإخضاع كل إجراءات الطوارئ للرقابة القضائية.

- تعديل الدستور في اتجاه جمهورية برلمانية وإنهاء هيمنة السلطة التنفيذية علي باقي السلطات، وإلغاء السلطات المطلقة الممنوحة لرئيس الجمهورية.

- قـانـون جـديـد لمـبـاشـرة الـحـقـوق السياسية وتعديل قوانين الانتخابات لضمان حرية ونـزاهـة الانتخابات، سـواء انـتـخـابـات الـتـجـديـد النصفي لمجلس الشورى أو انتخابات مجلس الشعب (٢٠١٠) أو انتخابات رئاسة الجمهورية (٢٠١١).

ثـــــورة الحـــريـــة

فريدة النقاش

(مجتمع الإنترنت الصيني هو الأكثر نشاطا وحيوية في العالم، فعدد المناقشات لا يعد، وموضوعاتها لا تحصى، ويتبادل الماديون والكونفوشيوسيون والحايكيون (نسبة إلى الاقتصادي الليبرالي فريدريك فون حايك)، يتبادلون الآراء اللاذعة والشتائم، ويتقاطر الصينيون من مستخدمي الإنترنت علي قراءة مدونات المثقفين الصينيين تقاطرا لا نظير له في الغرب، فسوق الأفكار في الصين ضخم).

هكذا كتب أستاذ الاقتصاد الصيني (ياشنج هوانج) الذي يعيش ويعمل في الولايات المتحدة الأمريكية معلقا على الأزمة المتفاقمة بين شركة (جوجل) والحكومة الصينية حول مراقبة الأخيرة للمعارضين، والقيود التي تفرضها علي حرية التعبير وحظر موضوعات البحث علي الإنترنت، ويطول هذا الحظر المتزايد آلاف الموضوعات التي يضاف إليها الجديد كل يوم مما حدا بالشركة إلي وقف نشاطها في الصين إثر معركة مع الحكومة الصينية.

ومع ذلك فقد ارتفع حجم المعلومات الرقمية المخزنة في الشبكة الصينية الإلكترونية أكثر من ٤٠٪ منذ عام ٢٠٠٥ حتي اليوم طبقا (لهوانج).

وثمة وضع متناقض في الصين، فبينما تزداد بصورة فلكية أعداد المتعاملين مع الشبكة وغنى وتنوع الموضوعات التي يعالجونها، تستشعر الحكومة الصينية الخطر من ثورة الحرية هذه فتزداد قبضتها عنفا رغم أنها هي نفسها - أي الحكومة - طرف أصيل في المناقشات التي تزداد اتساعا علي الشبكة.

ويدلنا هذا الوضع علي حقيقة التقدم المتواصل في معيشة الصينيين، الذين يكتسبون قدرات مادية ومعرفية متزايدة، جعلت ٣٠٠ مليون منهم يتعاملون مع الإنترنت، وليس هذا غريبا إذا عرفنا أن الصين تشهد أعلى مستوى نمو اقتصادي في العالم بلغ ١٠٪ طيلة أكثر من عقد، وكانت الصين واحدة من بلدان قليلة استطاعت أن تمتص بل وتتجاوز الآثار السلبية للأزمة التي ضربت الاقتصاد العالمي منذ عام ٢٠٠٨، وذلك بصرف النظر عن الجدل الدائر حول طبيعة هذا النمو في الصين، وهل هو جنين الاشتراكية كما تقول حكوماتها، أم هو انطلاق نحو الرأسمالية كما يرى اقتصاديون تقدميون موثوقون.

الشيء المؤكد في كل الحالات هو أن محاولات السيطرة علي ثورة الحرية التي تفتح لها شبكة المعلومات الدولية آفاقا بلا حدود محكوم عليها بالفشل في آخر المطاف، وأن هذه الثورة سوف تكتشف السبل والآليات والطرائق لتشق طريقها عبر الصعوبات، ورغم يقظة الأمن وذعر المسؤولين، لأن الإنترنت سيكون جسرا إلي الشفافية والمساءلة باعتباره أقوى أدوات الديمقراطية التي ابتدعتها البشرية حتي هذه اللحظة.

وعلي امتداد بلدان العالم الثالث يتعرض مدونون للملاحقة والاعتقال، بعد أن نجح بعضهم في تحويل الشبكة العنكبوتية من أداة اتصال لأداة تنظيم للأعمال السياسية الاحتجاجية، واستطاعوا حشد جماهير واسعة عبر هذا الاتصال، وهناك نموذجان ساطعان لهذه الحركة، المنتدى الاجتماعي العالمي في بورتو أليجري الذي انتظمت في صفوفه وفعالياته الحركة المناهضة للعولمة الرأسمالية فضمت ناشطين من كل أرجاء المعمورة تحت شعار العالم الأفضل ممكن، ونتجت عن هذا التواصل والتنظيم والنشاط أدبيات بلا حصر حملتها شبكة الإنترنت إلي كل أرجاء المعمورة، وفيها خصائص العولمة البديلة التي تتطلع إليها شعوب الأرض، وتنضجها كل أشكال عملها المنظم ضد الرأسمالية المتوحشة التي تتبادل خبراتها آلاف الجماعات المنظمة عبر العالم لتطور عملها وتجعله أكثر تماسكا.

هذا على المستوى العالمي.

أما علي المستوى المحلي فإن النموذج البارز أمامنا هو حركة ٦ أبريل، التي تكونت أساسا من شباب يحلمون بمستقبل أفضل لبلادهم لم تستوعبهم الحياة الحزبية القائمة والمقيدة والتقليدية، فخلقوا عالما خاصا بهم عبر شبكة الإنترنت، لاحقتهم أجهزة الأمن وحبست بعضهم وقدمتهم إلي المحاكمة، وزادت قبضتها - كما هو الحال في الصين - علي المدونين ونشاطاتهم والذين ازدادوا بدورهم عنادا وإصرارا وقدرة على الابتكار والتحايل، كذلك نشأت حول الدكتور (محمد البرادعي) المدير السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية الذي طرح فور عودته إلي البلاد شعارات التغيير والديمقراطية حركة تتسع بمتوالية هندسية وتستخدم الإنترنت أداة تواصل وتنظيم، لن تستطيع قوة مهما بلغ بها عنف البطش أن توقفها، وإن كانت أسباب مجتمعية مثل انتشار الأمية الأبجدية بين ملايين المواطنين تحد من آفاق تطورها ومجال فعاليتها.

نحن إذن بصدد ثورة للحرية إذ ينفتح أفق بلا حد على كل الأصعدة العالمية والإقليمية والوطنية، جاعلا من شعار العالم قرية واحدة صغيرة حقيقة موضوعية، لتكون مسيرة البشرية نحو الانعتاق والكرامة قادرة علي استخدام هذه الأدوات الجديدة التي سبق أن أجادت قوى الرجعية والبطش والاستغلال استخدامها ضد الملايين، وقد آن الأوان أن تكون هذه الأدوات لهم لا عليهم.